بحوث جامعية

RECHERCHES UNIVERSITAIRES
ACADEMIC RESEARCH

عدد 11 ـ جانفي 2014

مجلّة فكريّة تعنى بقضايا الآداب والعلوم الإنسانيّة
تصدر عن كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس

هيئة التحرير

- منير التريكي
- علي بن نصر
- محمد بن عيّاد
- محمد بوعتور
- محمد العزيز النّجاحي
- علي الزّيدي
- أحمد الجوّة
- عقيلة السّلامي البقلوطي

شارك في هذا العدد

- نور الدين الحاج
- عماد الحياني
- الحبيب الجموسي
- أحمد الناوي البدري
- سامي العذار
- عبد الرزاق الحيدري
- منير قيراط
- نافع فهري
- وفا الكشو
- فتحي بورماش

بحوث جامعية
عدد 11 ـ جانفي 2014
RECHERCHES UNIVERSITAIRES
ACADEMIC RESEARCH

جامعة صفاقس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

بحوث جامعية

مجلّة أكاديميّة محكّمة

العدد 11 لسنة 2014

li264013c420044su

مجلة بحوث جامعية

الإدارة والتحرير

العنوان : طريق المطار كلم 4.5 – 3029 صفاقس
العنوان البريدي : ص.ب. 1168 3000 صفاقس
العنوان الالكتروني : www.flshs.rnu.tnsite web
الهاتف : 557 670 74 (00216) - 558 670 74 (00216)
الفاكس : 540 670 74 (00216)

المدير المسؤول : **محمد بن محمد الخبو**
رئيس التحريـر : **منيـر التريكـي**

هيئة التحرير

- منير التريكي
- علي بن نصر
- محمد بن عيّاد
- محمد بوعتور
- محمد العزيز النّجاحي
- علي الزّيدي
- أحمد الجوّة
- عقيلة السّلامي البقلوطي

شارك في هذا العدد

- نور الدين الحاج
- عماد الحياني
- الحبيب الجموسي
- أحمد الناوي البدري
- سامي العذار
- عبد الرزاق الحيدري
- منير قيراط
- نافع فهري
- وفا الكشو
- فتحي بورماش

شكـــر

تشكر إدارة "بحوث جامعيّة" جزيل الشكر الأساتذة الذين أسهموا في التحكيم بالنسبة إلى هذين العددين وهم :

- أحمد السماوي
- محي الدين حمدي
- حمادي صمود
- خالد ميلاد
- عادل خضر
- محمد صالح مولى
- محمد بوهلال
- محمد الباردي
- محمد بن عيّاد
- عبد الفتاح براهم
- عبد الرزاق بن عمر
- محمد الخبو
- بسام الجمل
- محمد نجيب العمامي
- خالد الغريبي
- نور الدين الفلاح
- كمال اسكندر
- منير التريكي
- عقيلة البقلوطي

نموذج وصفي لتحليل الأدب
الأدب نسقـــا متعدد الأنظمة

سامي العذار

I have translated this article to demonstrate the emergence of a new literary theory in order to study literary phenomena, to bridge the gap between the former and the new theory (the polysystem theory).

إنّ دراسة الأدب تتحرّر منذ عشرين عاما، وإن ببعض الانتكاسات، من موروثات عديدة مثل الشّروح اللّغويّة (الفيلولوجية) والشروح التّاريخانيّة والشّروح الأدبيّة الفنّيّة وما إلى ذلك.. وإنّ قياس الإحراج فن/علم (أ دراسة الأدب فنّ أم علم ؟) قد تجاوزه الزمن اليوم إلى حدّ بعيد.

وما من دارس للأدب ومدرّس له اليوم إلاّ ويخضعان ضرورة لمقتضيات البحث (هذا البحث الذي نتجرّأ باحتشام على نعته بالعلم. فالرغبة في مناقشة الكاتب ومحاكاته ومحاكاة إنتاجه)، فهي أدخل في الإنجاز الفنّيّ منها في النّشاط العلمي. وإنّ اعتبار الدراسة الأدبيّة علما ما انفكّ يتنامى وإن لم يتجدّد النموذج العلمي الأجدر بالاصطناع فيها. وإذا كان من البديهي أن يتأسّس تأويل العمل الأدبي، لكي يكون مقبولا، على نظريّة أدبيّة، فإنّ أصل هذه النظريّة وطبيعتها الدّقيقتين ما زالا يثيران شكّا أساسيّا ما فتئت نظريات الأدب تتكاثر منذ تينيانوف وإينغاردن وكايزر وفلاك وغيرهم. وذلك مؤشّر على حيويّة من شأنها أن تفضي إلى تضخّم واضح. وعلى أيّ حال لم يعد الأمر كما كان عليه

سابقا. فمن أهمّ مزايا البنيويين الجدد أنّهم أقاموا الدّليل على أنّ العلم إمّا أن يكون فيما يكون نظريّا وإمّا أن لا يكون. إلّا أنّ الصّعوبة الأساسيّة تظلّ بديهيّا متمثّلة في أنّ النّظريّات الكثيرة لا يمكن أن تكون صحيحة كلّها في الآن ذاته. فالوعي بوجوب النّظريّات –كما بيّنّا ذلك عند الكلام على الترجمات (لامبار 1978 ب)– أدّى إلى اعتبار النّظريّات غاية في حدّ ذاتها. وكان أغلب هذه النّظريّات إمّا جزئيّة إجرائيّة في بعض الحالات وإمّا أنّها نظريّات فكريّة في جوهرها أي لا قيمة إجرائيّة لها (وصفيّة) . وقد نُظر إلى بعض هذه النّظريّات على أنّها فرضيّات أعدّت لمعاضدة التأويل المتعلّق بموضوع أبحاثنا (كالعمل الأدبي في شتّى مظاهره) وأعدّت أيضا لاختبار مدى نجاعتها.

وإنّ أيّة نظريّة جديرة بهذا الإسم هي تلك التي تقبل أن تُراجَع وتُكَيّف باستمرار ولذلك فإنّ تطبيقها على حالات معزولة منتقاة بدقّة متكلّفة لتناسب تلك الحالات لا يثبت سوى هشاشتها القصوى. وبناء على ما يقرّه أغلب المنظّرين المحدثين اليوم، فإنّ مجرّد البحث عن تأويل الأدب يقضي أن نعتبره منظومة أي ضربا من النّسق الخصوصي الذي يسمح لنا بتمييزه إن قليلا وإن كثيرا عن الظّواهر المحيطة به. وأن يكون الأدب نسقا فإنّ ذلك يقتضي بداهة أن تعقد العناصر المسمّاة أدبيّة علاقات ما داخليّة فيما بينها. وبطبيعة الحال ليس المقصود هنا هو نسق الأدب الذي يقتضي أن تكون خصائصه جدّ متوقّعة وإلى حدّ ما مغلقة. ويعني اللّجوء إلى مفهوم النّسق قبل كلّ شيء أن نتساءل: ما هي العلاقات داخل ما يبدو بمثابة مجموع ؟

واتّخاذ موقف نظريّ من قبيل(الأدب "نسق") يخفي في الواقع موقفا تاريخيّا بالأساس.

وفي كثير من الأوساط الجامعيّة وبخاصّة في فرنسا، اتّخذ مصطلح "نسق" (باعتباره "معيارا" ومجموعة من العبارات الأخرى) شكل صيحة حرب سياسيّة بالتّحديد.

وسيتذكّر العلماء، وهذا ما نرجوه، أنّ مهمّتهم تتمثّل في تأويل موضوعات بحوثهم وفي استخلاص العناصر التي تفسّر خصائصه الأساسيّة. وسواء علينا أَقَلِقْنَا أم لم نقلق، من مهامنا أن نشير إلى العناصر التي تحدّد

بدورها عناصر أخرى، ولا يمكننا أبدا والحالة هذه أن نتخلّص من حتميّة ما، وعندما نمتنع عن الصّياغة المسبّقة للآليات التي من المفروض أن تتعلّق بالأدب فإنّنا نستعمل مفاهيم مفتوحة. ولا تهمّ العبارات التي نستعملها في الواقع شيئا حتّى وإن كان بإمكانها اكتساب دلالات جديدة ذاتيّة جدّا في ظروف ثقافية مخصوصة. ذلك أنّ اللّجوء إلى مصطلحات خالصة ضرب من الخيال وفضلا عن ذلك فإنّ مصطلحي "منظومة ومعيار" غالبا ما وقع استعمالهما في القديم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وإنّ من الواجب تدقيق المفاهيم إذ هي أهمّ من المصطلحات خاصّة إذا كان بالإمكان تعويضها بأخرى. وفي هذا السّياق فإنّ كثيرا من سوء التفاهم راجع إلى تفضيل المنظرين أنساقا تطرح أقلّ ما يمكن من المشاكل أعني أنساقا بسيطة قلّما تتعرّض للتغيير. فالنّظريّة الأدبيّة مثلها مثل "اللسانيّات في السّتّينات من هذا القرن قد امتنعت زمنا طويلا عن مباشرة الأنساق المركّبة": فاللغة المتداولة والرواية والقصص المصوّرة والنّصوص العلمية تستجيب للتّأويل النّظري أكثر من العامية الأنجليزية أو اللهجات أو الشعارات الإشهاريّة أو الشّعر المنثور أو الرواية الجديدة.

أقصى منظّرو اللّسان والأدب قطاعات عديدة من التعبير اللّغوي أو الأدبي بناء على جملة من المعايير المسبقة أو الحدود المغلقة. وغالبا ما ارتبطوا بفكرة عن مواضيعهم أكثر من مواضيعهم ذاتها (لامبار 1978 ب).

ومن هنا كان ازدهار الاختصاصات الّتي طالما تجاهلتها اللّسانيات مثل اللّسانيات الاجتماعيّة والتداوليّة أو لسانيّات النّصّ. ولقد كان لألوان عديدة من التّشبّث بالرأي دور في الدّراسات الأدبيّة سواء قبل عصر النّظريّات أو إبّانه. وبعدما كان الاهتمام منصبّا أساسا على المؤلّف (استنادا إلى بعض الأحكام الرومانسية والتاريخانية) تحوّل الاهتمام إلى النّصوص (لذلك نشأ نوع من وثنيّة النّص) في انتظار اكتشاف هو أيضا إقصائي، لما يسمّى، منذ سنوات، "التّلقّي".

إلاّ أنّ عددا كبيرا من ألوان الإقصائيّة قد أضيف إلى سابقاتها ولقد تأبّت سلسلة من الأفكار الجاهزة على المراجعة حتّى لدى أنصار التّجديد النّظري الأشدّاء. وهكذا فإنّ الأدب الرّفيع وحده هو الّذي يحظى لدى الأغلبيّة الساحقة من الباحثين بالدرس، وذلك استنادا إلى تقويم ضمني لم يخضع، إلى اليوم،

لإعادة النظر. وما زال أتباع التّجديد، بموازاة مع هذا، يواصلون التّعليق أساسا على الأجناس الكبرى وعلى الأدب المعاصر (الذي أقصى منه الأدب المعاصر حقّا دون أن نعرف لذلك سببا) وعلى الآداب الغربيّة. ويمكننا الإقرار بأنّ الدراسات الأدبيّة المهيمنة تخضع الظاهرة الأدبية بصورة لا شعورية لمعالجة انتقائيّة وغالبا ما ظلّ التّفكير في الظّواهر (اللسانيّة أو) الأدبيّة الهامشيّة المنظور إليها على أنّها تحدّ أو تجريب هو الاستثناء أكثر ممّا هو القاعدة.

ومن النّتائج الإيجابيّة للمناقشات النّظرية حول الفعل الأدبي أن يتّضح لنا أن لا شيء يسمح بقصر "الأدب" على (كبار) المؤلّفين، أو على أهمّ (النّصوص) أو على القرّاء (مهما يكن المستوى الذي إليه ينتمون). فكلّ الحدود الضّيّقة تتصارع مع بعض المفاهيم الخاصّة الهامشية لا سيّما مع قديم النّظريّات. فكيف السّبيل إلى الرّفض المسبق لاعتبار هذه التناقضات إحدى خصائص الأدب ذاته، نظرا إلى أنّ الأدب كان يسعى دوما إلى إعادة ضبطه للعلاقات الّتي تربطه بغيره من التعبيرات الفنّيّة الأخرى، وببساطة الاجتماعية منها. وقد يكون من الضروري أن توجّه ضرورة الوضوح ودقّة الخطاب العلميّ، لكنّها لا توجّه وجوبا الخطاب الأدبي (خطاب المؤلّف والناقد). وتتوافر لدينا، والحالة هذه، نظريّات تستجيب لهذه المتطلّبات. وقد ولدت مع النّظريات الرّائجة راهنا إذ تكمّلها وتلطّفها، ممّا يعني ألاّ تنافر حقيقيا بينها وبين النّظريّات الأكثر انتشارا. وإذا ما وقعت الغفلة عنها بشكل شبه محلّي، فلأنّها امتنعت عن الاستجابة لمطمح شرعي ولكنّه عاطفي وغير علمي وهو مطمح البساطة.

وتنطوي هذه النّظريّات على كلّ محاسن نظريّة أصيلة ومساوئها من قبيل أنّها تقيم فرضيّات وتدعو إلى تطبيقها والتّثبّت منها في دراسات وصفيّة. أمّا النّظريّات المستخدمة حتّى اليوم فهي تسمح بتأويل عدد أكبر من الظواهر تأويلا مرضيا ممّا لم يحصل حتّى الآن وذلك لسبب بسيط جدّا هو أنّ هذه النّظريّات تؤلّف بين عناصر حال معرفية معيّنة وتكسبها انسجاما. ما دام الأمر يتعلّق بمفاهيم قليلة معرفتها نسبيا، فإنّنا نروم أن نسهم في ضمان رواج لها أكبر، ولذلك فإنّنا نقترح، علاوة على تقديم أهمّ جوانب هذه النّظريّة، عرض

جملة من المقولات الإضافيّة وعناصر البحوث الوصفيّة المقصود منها توكيد ثراء المقاربة النّظريّة.

وليست هذه النّظريّة التي نعنى بتحليلها هنا نازلة من السّماء، شأنها في ذلك شأن غيرها من النّظريّات. ذلك أنّ الفرضيات والحدوس التي سمحت بانطلاقتها وتطويرها إنّما اقترحها عدد من الشكلانيّين الرّوس (خاصة تينيانوف وياكبسون وإيخنباوم وشكلوفسكي)، ومن بعدهم عدد من بنيويي براغ (وتحسن الإشارة إلى أنّ تمثّل النظريات الشكلانيّة والبنيوية في أوروبا الغربيّة قد حجب جزئيا الفرضيّات التي ستكون محلّ دراستنا في ما يلي).

ولهذه النّظريّات أثر في أعمال بعض من سيميائيّي أوروبا الشّرقيّة خاصة لدى لوتمانLotman وباختينBakhtine وقد عمل، كلّ من إيتامار إيفن زوهارItamar Even_Zohar وجيدون توريGideon Toury من "معهد بورتر" للشعرية والسّيميائيّة" بتل أبيب على تأليفها في نظريّة حقيقيّة. وتعرف هذه النّظريّة عموما بـــ"نظريّة الأنظمة المتعدّدة" لأنّها تنظر إلى الأدب وكذلك إلى بقيّة أنظمة التواصل على أنّها مجموعة من الأنظمة متراتبة تتنافذ وتتصارع.

وتتميّز هذه النّظريّات ممّا عداها من النّظريّات (الشكلانية والبنيوية) بمحاولتها التّنبيه للأنظمة المعقّدة، و للتّداخل بين الأنظمة ومن ثمّ إلى تطوّرها خاصّة. وتروم هذه النّظريّة تفسير (الآني والزّماني) في مجموع ما ندعوه بالأدب. وهي بدل أن تفرض سلفا فكرة أنّ الفعل الأدبي يمثّل مجموعة أنساق تنطلق من فرضيّة حتّى تحدّد تحديدا أفضل العلاقات المختلفة بين الظواهر الأدبيّة: فالأمر يتعلّق بإطار نظري ضروريّ إبّان وصف الظواهر الخاصّة أي التاريخيّة. إنّ عُجْمة عبارة "تعدّد الأنساق" يمكن تجنّبه بسهولة إذا اقتضى الأمر (تماما كبقيّة المصطلحات التي سنستعملها) ولا تهمّنا، آنذاك، إلاّ مفاهيمنا التي بها تتعلّق. فما هي وظيفة الإبداع الذّاتي أو الأجناس الأدبيّة أو الدوريات أو التّيّارات أو الاستعارة أو بعض الأساليب من جملة ما في مرحلة زمنيّة بعينها ؟ تلك هي جملة الأسئلة التي علينا تطويرها إلى ما لا نهاية والتي نروم طرحها وإيجاد الأجوبة عليها انطلاقا من ترسيمة عمل. ويجدر بنا الانطلاق من

ترسيمة نظريّة تبرز العلاقات الممكنة في صلب الأدب، وذلك تحاشيا منّا للتحاليل الجزئية أو الأحاديّة الجانب.

وإذا كان بالإمكان موضعة مقام أدبي أيّا كان، على محور التّواصل الآتي :

باث	رسالة	متلقّ
كاتب	نصّ	قارئ (في المعنى الواسع للكلمة)

فإنّه يتعيّن علينا أن نموضع كلّ مقام أدبي خاصّ في علاقة مع النّظام أو الأنظمة الأدبيّة، ومع عناصر هذا النّظام أو هذه الأنظمة :

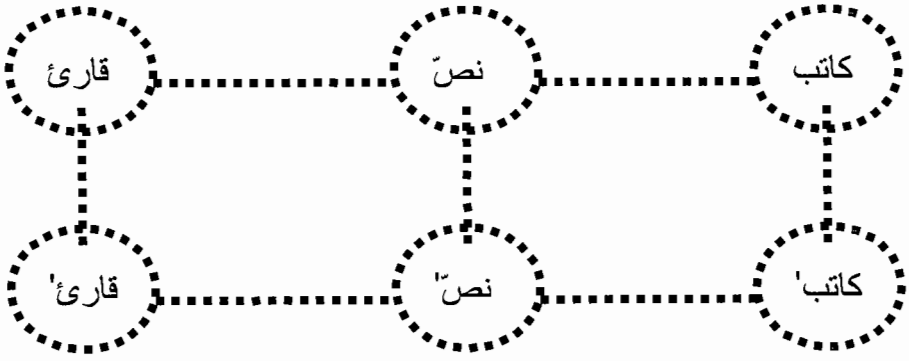

نظـــام أدبـــي :

- تشير الأسطر المتقطّعة إلى العلاقات الممكنة (من إيجابيّة أو سلبيّة والواضحة نسبيّا).

- ك–ن– ق تحيل على المؤلّفين والنّصوص (أجناس وغيرها) ممّا يهيمن داخل النّظام. يمكن للإبداع الذّاتي أن يتطابق مع هذا النّظام أو يتناقض معه.

- ⬭ تشير إلى الخاصّيّة المركّبة للعناصر التي علينا التمييز بينها : فالمؤلّف والنّصّ والقارئ تمثّل عناصر ديناميكيّة وغير منسجمة (المؤلف

باعتباره إنسانا وباعتباره كاتبا، والتّنوّع المحتمل للآثار والمستويات النّصيّة والقارئ الضّمني والقارئ الحقيقي إلخ..).

- إنّ العلاقات الجامعة بين الكاتب والنّصّ والقارئ تقتضي أساسا المظاهر التّوزيعيّة والمظاهر الاجتماعيّة ما إليها.

- نحن نروم أن ندرج النّصوص النّقديّة (أو النّصوص التي تتحدّث عن نصوص سابقة مهما يكن نوعها) في النّصوص، إذ الحدود الفاصلة بين ما هو إبداعي وما هو نقدي من النّصوص رهينة النّسق هي أيضا.

ومن جهة أخرى فإنّ العلاقة بين النّصّ والنّصوص الأوّليّة (ن) (ن') يمكن تبريرها إذا كان معلوما أنّ النّصوص أدبيّة خلافا للنّصوص (السردية والصّحفيّة) التي تعتبر نصوصا أدبيّة. وإنّ استخراج هذه العلاقة يعني الأخذ بعين الاعتبار لما يفرّق نصّا أدبيّا عن النّصّ بإطلاق في ثقافة عصر ما.

-بما أنّنا نعتبر بالشّخصيّة الاجتماعيّة للمؤلّف والقارئ، فإنّ عبارة "الأدب" أو "النّسق الأدبي" لا تعني مطلقا استقلاليّة الأدب، إلّا أنّ هذه الاستقلاليّة غير مقصاة تماما، وإنّما تستوجب منّا تحديدها [بدقّة].

وينبغي علينا، فعلا، أن نلحظ مختلف العلاقات المرتبطة بشبكات التواصل، والّتي بإمكانها أن تؤدّي وظيفتها أداء جيّدا حسب قواعد مماثلة (لوتمان 1976).

وإنّ ميزة مثل هذه التّرسيمة المتناسبة في خطوطها العريضة مع ترسيمات التّواصل الكلاسيكيّة، إنّها تضطرّنا إلى أن نموضع كلّ ظاهرة تعتبر أدبيّة في علاقة بالأدب، كما يحضر في الثّقافة المحدودة مكانا وزمانا. فإنّ هذه الترسيمة لا تقصي شيئا بل هي لا تقصي حتّى الطّابع الشّاذ أو الاستثنائي لآثار أو مؤلفين خاصّين، وعلى العكس من ذلك، فإنّها تسمح بإدراكها ومحاصرتها أكثر. وبهذا نضطرّ إلى تحديد أيّ جانب من أيّ أثر هو تقليديّ، وبالنّسبة إلى أيّ تقليد ؟ وهكذا فإنّ الوظيفة الأساسيّة لترسيمتنا هي هيكلة بحثنا، وباختصار هي الجمع بين النّظري (يأتي الأدب وفق ترسيمات) والتّاريخي ("وفق أيّ ترسيمة ؟"). وفضلا عن هذا الإطار المرجعي فنحن في حاجة إلى جملة من

الأدوات الإضافيّة التي تطمح إلى الإحاطة بثوابت كلّ نظام أدبيّ. فالمفاهيم التي استعرضناها وناقشناها سابقا ذات فعاليّة لا جدال فيها.

ومن البديهي أنّ التفسيرات التي سنقدّمها لاحقا لا تستنفد ما لها من قيمة، ولذا، فإنّ ضرورة تنظير أعمق تفرض نفسها. ما من نظام تواصل إلاّ ويتأسس وجوبا على مواضعات. ولا يعتبر الأدب أدبا إلاّ إذا احتوى على سلسلة من العلامات المتواطأ عليها والمعترف بها لدى المطّلعين (قراء ونقادا ومؤلفين يتوافرلديهم على حدّ أدنى من المعلومات المطلوبة؛ وقد يغرى القرّاء الآخرون بتأويل هذه العلامات نفسها على أنّها راجعة إلى شبكات من التّواصل مغايرة).

فنظم الشّعر، والتّصوير، والتّقسيم إلى فصول أو فقرات أو مناظر واللّجوء إلى "الأنا" التّخييلي كلّها من العلامات الخاصّة بالأدب على الأقلّ في وضعنا الثقافي الحالي. وكلّ محاولة لتعريف الأدب بمصطلحات شكليّة باءت بالفشل إلى حدّ الآن، لأنّ الأدب يسند وظائف أدبيّة إلى طرائق ليست من الأدب في شيء (انظر تينيانوف؛ وانظر أيضا : Collage [الإلصاق] الأدبي بواسطة نصوص مستخرجة من جريدة).

المعاييـــر :

نلحظ، على هذا النّحو، أنّ ثمّة أشكالا وطرائق مشحونة قيمة. فالظاهرة الأدبيّة تبدو شديدة الارتباط بتطوّر سلّم من القيم لا يمتلك شيئا جوهريا خالصا (ليس الجمال جوهرا بل هو مجموعة خصال تتطلّبها ذات أو ذوات)، ولكنّه يتولّد من تنظيم النّسق ذاته. ويثير هذا السّلّم صراعات وتوتّرات وانزلاقات بله اتّهامات (فرديّة وجماعيّة). وإنّ مسألة المعايير (أو القيم) هي من المسائل الجوهريّة الّتي على الدّراسات الأدبيّة حلّها (لا الجهل بها أو اطّراحها بحسب النّقد السّائد في لحظة معيّنة). وإلى هذه المعايير يجب أن يُعزى تطوّر الأجناس والحظوة التي تلقى، والتّيّارات، بل وحتّى فشل الأدب أو نجاحه.

معايير الموضوع/معايير الباحث :

إنّ إمكانيّة تمييز المعايير الأدبيّة ووصفها ذاتها رهينة فصل ذي مستويين : مستوى موضوع الوصف ومستوى الباحث الّذي يروم وصفه. فمن

المستحيل على الباحث أن يعلّق المعايير الخاصّة الّتي تقوم عليها رواية محدّدة إن لم يمتلك ترسيمة نظريّة تخوّل له أن يؤطّر موضوعه. وبدل الإسراع إلى اتّخاذ موقف يستند إلى أحكام قيميّة، ممّا يعني تضارب معايير ذاتيّة (هي معايير الباحث الّتي غالبا ما تكون معايير النّقد السّائد) مع معايير ذاتيّة أخرى (هي معايير قرّاء آخرين ومعايير الرّواية المحلّلة) فإنّ على الباحث السّعي إلى إجادة ملاحظة موضوعه وتعيينه من خلال إطار مرجعي، فليس من مهامّ البحوث الأدبيّة الإسهام في الأنشطة الأدبيّة بل المساعدة على تأويلها، وهذا التّفريق بين المقاربة المعياريّة (Normative) والمقاربة الأدبيّة اللامعياريّة يرتبط ضرورة ارتباطا وثيقا بالحاجة إلى الانطلاق من نماذج افتراضيّة، فهو لا يعني مطلقا إبطال المعايير بل يعني على العكس من ذلك محاولة تفسيرها على مستوى الأدب بل في مستوى أرقى (لا في مستوى الأدب بل في مستوى من يعلّق على الأدب).

ولا يتعلّق الأمر، في الواقع، بوضع مثالي قد يكون الحلم به كافيا، وإنّما يتعلّق بموقف تدعمه معرفة للموضوع شاملة محايدة (إنّنا نحدّد منزلة شكسبير بصفة أفضل عندما نعرف أنّ له معاصرين مشهورين كتبوا حسب مبادئ مختلفة ولا تثير البتّة سخرية، فما فائدة التّماهي مع شكسبير بل مع منافسيه ؟).

فالباحث يغنم غنما كبيرا، ما دام لا يستطيع أن يكون في الآن نفسه خصما وحكما، عندما يطوّر تقنيات بحث (كالروائز والتّزوير) تضعه خارج الصّراع الأدبي.

وإذا ما استهدف الباحث الإحاطة بمعايير نسق محدّد، فإنّه سيكلّف نفسه مشقّة البحث عن المعارك الأدبيّة باعتبارها ظواهر تعرّي صراع المعايير.

خصوصيّة الفعل الأدبي/ عدم خصوصيّته :

إنّ فكرة أن يمثّل الأدب، من بين أنظمة أخرى، نظاما تواصليا يحظى باستقلاليّة معلنة إن قليلا وإن كثيرا حسب الظّروف، تفترض اللّجوء إلى مقولات عليها أن تكون عامّة بما فيه الكفاية حتّى تكون قابلة للتّطبيق على أيّ

صنف من أصناف التّواصل. ومن هنا ينشأ الطّابع الوقتي للنّظريّة أو للنّظريّات : فالمقصود تقديمُ فرضيّات عمل يُعاد النّظر فيها باستمرار إذا لم تف بالقصد.

وما يعبّر عنه عادة باستقلاليّة الفعل الأدبي لا يجد من هذا التّمشّي مسبّقا تشكيكا فيه. فهو قد يتمكّن إمّا من أن يتحدّد بنشاط خاصّ للبنى العامّة (السّيميائيّة)، وإمّا من أن يتبيّن طابعه الوهميّ، لاحقا. وقد كان الأدب، في بعض الفترات من التّاريخ، موضوعا لخدمة السّياسة، ممّا قلّص من خصوصيّة دوره.

مثال : ارتبطت فكرة الأدب الملتزم لدى سارتر مثلا بإحلال الرواية والمسرحيّة المحلّ السّامي بل بتقليصهما إلى دلالتهما المرجعيّة (على حساب الوظائف الشّعريّة). كما جعلت جماعة (تال كال) (Tel quel) الأدب تابعا لإكراهات خارجيّة. أمّا في قطاعات أخرى من الأدب الفرنسي الحديث، فالعلاقات بين البنى الاجتماعيّة السّياسيّة من ناحية والبنى الأدبيّة من ناحية ثانية أقلّ ما تكون ارتباطا.

إنّ استقلاليّة البنى الفنّيّة عن أنظمة التواصل الأخرى، حُدّدت، منذ الشّكلانيّة الرّوسيّة، بعبارات تفيد انتفاء الآليّة والإقرار بالسّلبيّة (لوتمان 1976)، ومن ثمّ بعبارات تؤكّد النّسبيّة. فالإبداع الفنّي يستجيب لوظيفة إحيائيّة مقارنة بما عليه الأمر في الحياة اليوميّة (الفنّ أفيون الشّعوب) وفي المواضعات الفنّيّة أيضا. وهكذا يبدو انتفاء الآليّة بمثابة عقدة التّطوّر بالنّسبة إلى الأنظمة الفنّيّة؛ وهو ما ينسجم جزئيّا مع التّصوّر التّبسيطي للتّطوّر حسب عبارة الفعل/ردّ الفعل.

إنّ وجوه الفعل/ وردّ الفعل الناتجة عن انتفاء الآليّة هي أقلّ صوريّة ممّا تبدو عليه في الواقع، ذلك أنّ طبيعة العلاقات التي تحدثها يعسر علينا توقّعها (وهكذا فإنّ القرن التّاسع عشر في أوروبا مكّن من تعايش الفنّ للفنّ –هذه الحركة التي لم تقع مراجعتها في كلّ المجالات على عهد الواقعيّة– وحركة تضع الأدب جزئيّا في خدمة الاهتمامات الاجتماعيّة). وقد يكون من واجب المختصّين في الأدب، بدل الإقصاء المسبّق لضروب التّوازي القائم بين السلاسل الأدبيّة والسّلاسل الاجتماعيّة والفلسفيّة والموسيقيّة وغيرها، أن يجهدوا

في تحديد أيّ العلاقات تقوم بينها. وبالإمكان تصنيف هذه العلاقات حسب اصطلاحات التماثل واصطلاحات التّداخل، فتحليل التّداخل مثلا بين "الأدبي" و"الاجتماعي" في القرن الثامن عشر أو بين المظاهر التّشكيليّة والموسيقيّة والاجتماعيّة والأدبيّة لعرض مسرحي، يسمح بملاحظة الخصائص الأدبيّة للموضوع بشكل أفضل بدل إهمالها.

ومن ثمّ، فإنّ التّفاوت بين الأدب والثّقافة (أي بين النّسق الأدبي وغيره من الأنساق) قد يختلف حسب الفترات، وأساسا حسب نزعات النّسق المعنيّ. والنّسق الأدبي استقلاليّ طالما اختار بذاته القيم التي ضدّها يثور والقيم التي يجهد في التّطوّر نحوها.

ويبدو من العبث تقليص النّسق الأدبي إلى حدود النّسق الاجتماعي، ومجرّد وجود لفظ "الأدب" ونظائره شاهد على أنّ التّاريخ وعى أنّ اشتغال الأدب لا ينسجم ببساطة مع سائر أنماط التّواصل الأخرى. فمن الأكيد أنّ هيمنة النّظام الاجتماعي (السياسي والفني والدّيني) تبرز في بعض القطاعات بجلاء نسبي. وإنّ على الباحثين أن يحدّدوا، بدقّة، أيّة أنساق يتداخل فيها بوضوح الأدب مع مختلف قطاعاته الأخرى. كما أنّ عليهم أن يضبطوا أيّ الأوضاع يوجّه فيها النّسقُ الأدبي النّسقَ الاجتماعي (ذاك الذي يمكن أن تعوّضه أنساق ثقافيّة كالنّسق السّياسي والدّيني وغيرهما)؛ وبإمكان هذا النّسق الأدبيّ أن يلعب هو أيضا دورا مهيمنا.

معايير ونماذج :

يمكن وصف أيّ سلوك اجتماعي وما ينجرّ عنه باستعمال عبارة معايير: فهذه هي المبادئ التي توجّه تنظيم هذا السّلوك، وللباحث أن يصوغها بطريقة مجرّدة. وقد يحدث أن يصوغها هي أيضا الباثّ أو المتلقّي. ويمكن أن تكون المعايير إيجابيّة أو سلبيّة (فالرّواية النّاجحة يمكن أن تكون مشاكلة للواقع وأن لا تكون فيها استطرادات) ؛ وتنخرط هذه المعايير في مجموعات تلعب فيها الأولويات دورا بارزا ("بإمكان الرواية أن تكون لاواقعيّة إذا كانت شعريّة" ؛ "والاستطرادات لا تضير في رواية رمزيّة").

وهكذا تتوافر للفرد معايير شخصيّة يتسنّى بها بروز أصناف من التّراتب المتأكّد نسبيّا، وذلك إن قليلا أو كثيرا، إلى الحدّ الذي تكون معه المعايير الأدبيّة هامشيّة أو تكاد، مقارنة بالمعايير السّياسيّة أو غيرها. ورغم ذلك، فإنّ المعايير الفرديّة تنسجم في معظم الحالات مع هيكلة اجتماعيّة ما : وهي بَيذاتيّة، فرديّة بشكل أو بآخر بحسب اختلاف الحالات. ويسمح مفهوم المعيار، في دراسة الأدب، بالكشف عن التّيّارات الجماعيّة والأوضاع الفرديّة سواء من الوجهة الآنيّة أو الوجهة الزّمانيّة.

وملاحظة النّماذج أقلّ دقّة من ملاحظة المعايير لأنّ هذه تجسيم لتلك. وبإمكان النّماذج أن تكون من طبيعة مجرّدة بشكل نسبيّ : إذ يتعلّق الأمر بمستوى التّعميم الذي يتبنّاه الباحث أو الكاتب والنّاقد. وبالإمكان أن يعتبر مؤلّف أو شخصيّة، تماما كما يعتبر الجنس [الأدبي] والأسلوب والصّور، في الآن ذاته، وحسب مستويات متباينة، نماذج تحتذى.

وما دام الأدب نظاما تتوافر فيه استقلاليّة نسبيّة (نظاما ذاتي التّنظيم : لوتمان 1976)، فإنّه غالبا ما يعلن معاييره ونماذجه في نصوص هي كلام على كلام. وعادة ما تتكشف الشّفرة (أو مراجعتها) ضمن الملامح النّقديّة لكلّ نصّ أو في الوثائق التي يكون فيها الملمح النّقدي أبرز.

والنّقد هو إحدى المؤسسات الأساسيّة لاشتغال الأدب، إلّا أنّ المستوى الذي يبلغه توضيح المعايير والنّماذج هو عموما محدود : فالنّقد يتبنّى في معظم الحالات موقفا معياريّا لاتعلن فيه صراحة أسسُ المعايير نفسها، وهي المتواضع عليها أصلا. ومن هنا يتميّز الخطاب النّقدي عن الخطاب العلمي الذي تكمن مهمّته في دراسة المعايير وتفسيرها بدل الدّفاع عنها.

من النّقد إلى ما وراء النّصّ النّظري :

تتدخّل، في الأدب، أنواع ومقولات شتّى. وزيادة على ذلك، فمجرّد حضور نمط مخصوص من النّقد أو غيابه يسمح لنا، إلى حدّ مّا بتمييز التّوجّه الذي يتّخذه النّسق (الفرعي). ويتّفق، على هذا الأساس، أن يتكشّف النّقد، داخل جنس أدبي خاص، عن نقد لأجل النّقد فيكون معزولا تماما عن نقد أجناس

أخرى. وفي أحيان أخرى، يعنى النّقد بأجناس مختلفة في الآن ذاته. ومهما يكن من أمر، فإنّ وظيفة كلّ من الأجناس والنّقد قد اتّضحت، في الحالتين, بطريقة غير مباشرة. ونادرا ما يمتلك الأدب الفرعيّ (سنستخدم لاحقا الزوج أدب رفيع/أدب وضيع) نقدا على حدة، اللهمّ إلاّ إذا فرض نفسه أدبا فرعيّا عدوانيّا، واضعا معايير الأدب الرّفيع ونماذجَه موضع سؤال، (فللرّواية البوليسيّة والقصص المصوّرة والخيال العلميّ جهاز نقديّ طموحاته محدودة نسبيّا. وقد يكون الأمر نفسه بالنّسبة إلى الرّواية إيّان كانت هيمنة المأساة والشّعر الملحمي عليها قويّة). ويسعنا، من ناحية أخرى، أن نستعرض مواقف مختلفة لدى النّقّاد، تعيّن حالة للنّظام محدّدة، وذلك حسب أوضاعهم فيه.

ونذكر على سبيل المثال :

- موازين (سنة بعينها، جنس بعينه، إلخ..)
- المساجلات المتعلّقة بـــ...
- البيانات
- الشعريّات
- موازين معاصرة أو تاريخيّة.
- تدريس الأدب أو التربية الأدبيّة (بوبوفيتش)

وبوسعنا أن نضيف إلى هذه الأمثلة المحاكاة الساخرة وجملة النّصوص الإبداعيّة المتعلّقة ببرنامج نقدي. وبإمكان تواتر أنماط مخصوصة من هذه النّصوص أو ندرتها أن يكون مقياسا عند تحليل النّسق. ويمثّل العدد العديد من الشعريات المعيارية زمن بوالو (Boileau) تماما كتعايش شعريات قديمة وحديثة إحدى العلامات على نسق ثابت ومركزي. في حين يترجم ازدياد عدد البيانات في عصر الرّمزيّة في فرنسا أزمة معايير. والواقع أنّه تتوافر لدينا صورة جزئيّة جدّا (ومتحيّزة) للأدب (قديما وحديثا) ؛ وذلك نتيجة للتّدخّلات النّقديّة المختلفة الألوان والقائمة بيننا (قارئا أو باحثا) وبين موضوع الدّرس ولهذا السّبب من واجبنا أن نعيد تشكيل الصورة العامة للأدب. وإنّنا إذ نجهل العدد العديد من المحاكيات الساخرة ورسائل الهجاء والبيانات والأنماط الأخرى من النّقد، فذلك لأنّ تواريخ الأدب –القائمة هي أيضا على مصادر ومراجع انتقائيّة–

تفرض علينا تصوّرا جزئيّا يعدّ بعديّا وعلى أسس معياريّة لم يحسن [واضعوها] تأسيسها أو تمحيصها (لامبار وإيفان غروب (Ivan Grop) 1981-1982).

وليس من شأن هذا إلاّ توكيد مدى ما توجّه به دائما بعض منظورات "العصر" "الأدبيّة" التاريخ الأدبي. وهذه المنظورات، عموما، متخلّفة عن التّيّارات السّائدة في العصر. إلّا أنّ من الواضح أنّ تاريخ الأدب يبدو مظهرا من مظاهر التّربية الأدبيّة، مجاورا للنّقد (لا نقد الحاضر بل نقد الماضي).

أنساق/أنساق فرعيّة/تنظيم لا نسقي :

إذا ما مثّلت المعايير والنّماذج نواة النّسق، فإنّ ضبط الحدود الفاصلة بين مختلف الأنساق والأنساق الفرعيّة لا يتسنّى صوغه إلاّ بشكل نسبيّ. وليس لأدب قومي (أو لجنس أو أثر فردي) أن يتميّز عن الآداب المحيطة به (أو الأجناس أو النّصوص المجاورة) إلاّ متى تأسّس على مجموعة هامة (معترف بأنّها هامة) من المعايير والنّماذج الخاصّة. ويمدّنا هذا الإثبات بإمكانيّة تأويل المسألة التي ظلّت، على الدّوام، كما يبدو، معلّقة وهي على سبيل المثال "اللسان والأدب والأمة" : أيتأسس الأدب على معايير لسانيّة أم سياسيّة ؟ (لامبار 1983 أ). ومن المؤكّد أنّ الصّعوبة الأكثر إقلاقا هي التعايش بين أنساق فرعية مختلفة، والتّداخل بين الأنساق. وهي مقلقة على المستوى النّظري وبدرجة أقلّ على المستوى الوصفي، وهو ما يدعو إلى إعمال الفكر. ذلك أنّ ضروب التّداخل على كلّ المستويات (كالآثار الفرديّة، والمؤلّفين الأفراد، والمؤلفين الجماعات، والتّيّارات، والفترات، والآداب المدعوّة قوميّة) تبرز للعيان، في حين أنّ الخطاب النّظري، بصفة عامّة، يتأبّى، حتّى السّاعة، على الاعتراف بذلك. وبإمكاننا أن نتصوّر، من جهة أخرى، إمكانيّة ملاحظة ضروب التّداخل وتفسيرها بواسطة ترسيمات أكثر تعميما. ومجرّد اللّجوء في الواقع، إلى مفاهيم من قبيل الآنيّة والزّمانيّة هو في ذاته مؤشّر على مثل هذا الإمكان.

إنتاج/تقليد/توريد/ (لمبار 1980 ب) :

ستمكّن معاينة براهين الإحراج من الإحاطة بعدد من الخصائص في صلب النّسق، ومعلوم أنّ اللّجوء إلى الثّنائيّات النّقديّة كثيرا ما كان محلّ نقاش.

وفي الواقع، عندما يطبّق باحث، في الغالب الثنائيات الضدّيّة، على موضوع بعينه، فإنّ خطر التّجريد الناتج عن تدخّل الباحث (المتموضع خارج النّسق الملاحظ) خطر حقيقي. وتشتغل هذه الثنائيات [الضدّيّة] في صلب النّسق، عند الممارسة، بدمج سلاسل من براهين الإحراج ومن أولويات هذه السلاسل في بعضها الآخر. وتتطلّب براهين الإحراج التي سنعرض لها لاحقا، التحليل على حدة، ولكن في الآن نفسه التّحليل في علاقة ببراهين إحراج أخرى، أي ضمن شبكات ضدّيّة حيث تطفو ضروب من الأرتبة.

ومسألة إطار التّحليل القائم على ثنائيّات ضدّيّة بنيويّة عرفها البحث من مدّة وقلّما اقترحت كمفتاح لاشتغال الأنساق الأدبيّة (وبلا شكّ أيّ نسق آخر) سيّان. ويفرض علينا الاتصال مباشرة بالحياة الأدبيّة في حالها الخام (مثل المسرحيات في قاعة معيّنة وكرّاسات دور النّشر، والبيبليوغرافيا الرّسميّة لعصر ما، والمكتبات) التّمييز بين "آداب متباينة" تتعايش في كلّ مكان، ويخلط بينها النّقاد والكتّاب والقرّاء دوما ولا يقوم بالفصل بينها إلاّ الباحثون المغرمون بالتّصنيف : ويتعلّق الأمر بالفعل بالأنظمة الفرعيّة التي يتميّز بعضها عن بعض، إلى حدّ ما ولكنّها من ناحية أخرى تتنافذ وتتداخل. ويبدو أنّ كلّ أدب (بل كلّ أثر إبداعي وكلّ كاتب وكلّ جنس [أدبي]) يأخذ جانبا من معاييره ونماذجه من الخلط الموجود بين هذه الأنساق. ويتعلّق الأمر بـــ :

أ- **إنتاج الفترة** : أي كلّ الأنشطة الأدبيّة التي تعرفها فترة بعينها أيّا كان مستواها وبحسب معايير تلك الفترة (وبإمكاننا أن نوسّع هذا المفهوم ليشمل القرّاء والمؤلّفين).

ب- **السّنّة** : أي ما بقي حيّا من الأنشطة الأدبيّة القديمة، وحافظ بعضها على حظوة مخصوصة. وتحضر السّنّة باستمرار في شكل انتقائي وآخر مركّب (بحسب أنواع الإنتاج عامة)، وهو ما يفسّر قدرتها على امتصاص ثورات حقيقيّة بل وعلى إثارتها.

ج-**التّوريد** : أي ما يتّصل بهذه الأنشطة، كأن يستورد النّسق الأدبي نصوصا لا عهد له بها، انطلاقا من أنساق (أدبيّة) مجاورة على اختلاف

أنواعها كالآثار القديمة والحديثة المترجمة أو الواردة بلغة أجنبيّة والسّنّة المجهولة والآثار التي أعيد إليها الاعتبار بعد أن كانت غير معترف بها والنّصوص والمعايير والنّماذج المستعارة من تعبيرات فنّيّة مغايرة).

وليس التّمييز بين قطاعات الحياة الأدبيّة هذه بدقيق، ولا يمكنه أن يكون كذلك، طالما لعب اشتغال الأدب على هذا اللّبس. ورغم ذلك، فإنّ ملاحظة التّداخل بين ***الإنتاج/والسّنّة/والتوريد*** تسمح باستخلاص نتائج عن التّوجّه الأساسي لـ***الإنتاج***، في علاقته بالأنساق الأخرى. ومن البديهي أن يطغى ***الإنتاج*** في معظم الأوضاع على ***السّنّة والتوريد***، وينتقي نماذج ومعايير لدى ***السّنّة*** و/أو ***التوريد***. ورغم ذلك، فقد يتّفق أنّ ***الإنتاج*** في ظروف استثنائيّة، يتبدّد تماما (فطالما خنقت حكايات برّو (Perrault) وغريم (Grimm)، إن صحّ التعبير، ***الإنتاج*** في أدب الشّباب، وغالبا ما منعت التقاليد الكلاسيكية الآداب القوميّة من التّحرّر، وذلك حتّى عصر الرّومنطيقيّة). ومن جهة أخرى، كثيرا ما يحدث أن تحجب ***السّنة التوريد*** أو يُوجّه ***التوريد*** ضدّ ***السّنّة***، إلاّ أنّ أفكار الأخوين شليغل (Schlegl) ومدام دي ستال (De Stael)، في عصر الرّومنطيقيّة تتعلّق، في الآن ذاته ***بالتوريد والسّنّة*** وهو ما ساعد، من جهة أخرى، على إعادة الاعتبار ***لسنّة*** جديدة (القرون الوسطى)، موجّهة ضدّ ***السّنّة*** الكلاسيكيّة. وبدل تعريض القيمة الإجرائيّة لترسيمتنا للخطر، فإنّ الانزياحات والانزلاقات والتعريفات المتجدّدة باستمرار، تلك التي يمكّننا ثالوثنا من ملاحظتها، تسعفنا بتأويل رئيس للتّحوّلات التي تعرفها الأنساق الأدبيّة. وفضلا عن ذلك، فإنّ ترسيمتنا تسمح لنا بالطّرح من جديد لمسألة الألسن والآداب الدّارجة والجماعات المهمّشة، بله الآداب الهامشيّة (تلك التي غالبا ما تعيش على الاستيراد في حين أنّ الآداب المركزيّة تصدّر على قدر ما تورّد، بل قد تصدّر أكثر). ومزيّة ترسيمتنا الأساسيّة (***الإنتاج/ والسّنّة/ والتوريد***) هي في مدّنا بمفتاح يسمح لنا بوصف تطوّر الأنساق الأدبيّة في تفاعلها مع غيرها من الأنساق الأدبيّة والفنّيّة والثّقافيّة الأخرى.

والأدب، بالفعل، يظهر كأدب يتطوّر إذ العلاقات بين ***الإنتاج/والسّنّة/والتوريد*** غير ثابتة البتّة، وإن كانت كذلك بالنّسبة إلى بعض

القطاعات الأدبيّة بشكل نسبيّ (من ذلك مثلا المسرحيّة الهزليّة الخفيفة منذ القرن التاسع عشر إلى أيّامنا هذه) وأقلّ كثيرا بالنّسبة إلى قطاعات أخرى (وهكذا يسعنا أن نعيد التّفكير في تطوّر الأجناس الأدبيّة العصريّة الأساسيّة، كالرواية، باصطلاحات النماذج والمعايير والشفرات والتّداخل بين ***الإنتاج/والسّنّة/والتوريد***).

ويمكن للعلاقات داخل الأنساق الأدبيّة (العلاقات الداخليّة) والعلاقات بين مختلف الأنساق الأدبيّة (العلاقات المتبادلة) أن يُنظر فيها وتسبر أغوارها من خلال زوايا عديدة. وقائمة المعايير الممكنة لا حدّ لها. ولهذا، نقترح متابعة منّا لعديد المنظّرين ولإيفن زوهار أساسا سلسلة من المعايير تكمن قيمتها في نسبيّتها إذ وقع تحديدها بألفاظ تحيلنا بدورها على ثنائيات قطبيّة (أي لا جوهريّة). وقد يكون من العبث السعي إلى تحديد العبارات الآتية مستقلّة عن غيرها ومستقلّة عن مدوّنة تاريخيّة محدّدة (فلا أحد يمكنه أن يحيط بالأدب الوضيع دون ذكر لمن يتكلّم ومتى يتكلّم عن أدب وضيع).

الأدب الابتدائي/ الثانوي :

يعيد الأدب من نمط "الابتدائي" النّظر في المواضعات السارية المفعول، خلافا للأدب الثانوي (الذي يستغلّ بكلّ بساطة هذه المواضعات). وقد يكون من غير المفيد إعادة القول بأن لا مؤلّف وأن لا أثر أدبيّا ابتدائيّ برمّته أو ثانويّ برمّته. ويحسن أوّلا وبالذّات تبيّن في ما يكمن تقويم أثر أدبيّ أو مؤلّف بأنّه ابتدائي أو ثانوي وبالنّسبة إلى أيّ شيء يتمّ ذاك التّقويم. ولنقرّ، بهذا الصّدد، بالخصومة بين القدامى والجدد، تلك الخصومة التي لا نعيرها أيّ قيمة معياريّة أو مطلقة. فالأدب التّقليدي في عصرنا قد يكون نموذجا للأدب المتطوّر غدا، وقد يوجّه الأدب التقليدي لبلد ما الأدب التقليدي في بلد آخر ذلك أنّ كثيرا من الآثار المعدّة اليوم ابتدائيّة، لن يكون لها، في العشرين سنة القادمة أدنى راهنيّة.

الأدب الرفيع/ الأدب الوضيع :

يتعلّق الأمر أيضا بالخصومة التي يعبّر عنها في الأنساق نفسها بصيغ شتّى (شبه الأدب، الأدب المحيط، الآداب الهامشيّة، أدب العامة، إلخ..).

ويحسن بنا، بكلّ بساطة، تماما مثلما فعلنا مع ابتدائي/ثانوي، أن نحدّد العلائق بين بعض الظواهر الأدبية والمواضعات والمعايير والنّماذج السارية المفعول. فالصّراع بين أنماط مختلفة من الأدب سواء على محور التزامن أو على محور التعاقب جدّ معروف : من ذلك أنّ أدب الآفاق وأدب ("الخاصة" و"علية القوم") و"الأدب الشعبي" وحكايات الأطفال والقصص المصورة، على سبيل المثال، لا مكان لها سلفا، في عالم الآداب. وبإمكانها، حسب اختلاف الأزمنة والأمكنة، أن تعتبر الأدب الوحيد الجدير بهذا الاسم، أو على النّقيض من ذلك، ألاّ تدخل تحت طائلة الفنّ الأدبي. ويمعن لوتمان في تقسيم الثّنائيّة أعلى/أسفل بمقابلته بين "أدب" و"أدب مناهض" و"لاأدب". فمفهوم "الأدب" يشتغل بوصفه نسقا شبيها بالنّسق الأدبيّ دون أن يستعير منه اسمه (النّصوص الإباحيّة الحديثة على سبيل المثال)، في حين أنّ الأدب المناهض يعمل على احتلال مكانه في دنيا الأدب (كما هو الحال، في عصرنا هذا، بالنّسبة إلى القصص المصوّرة والخيال العلمي باعتبارها أجناسا أدبيّة صاعدة).

المركز / الهامش :

تتقاطع ثابتة أخرى جدّ مفيدة جزئيا مع سابقتها دون أن تتماهى معها وهي مركزيّ/هامشي. فكلّ الأنساق الأدبيّة تتوفّر على مركز معترف بأنّه المكان الذي يتجسّد فيه أكثر من غيره مثل المعايير والنّماذج العليا. وليس هذا المركز وجوبا ذا مفهوم جغرافي أو فضائي، إلّا أنّ على المقولات الجغرافيّة والفضائيّة أن تصاغ أساسا انطلاقا من التقابل مركز/هامش. ومن المعروف، مع ذلك، أنّ بعض الآداب القوميّة (بعض المجموعات) تتوافر على أكثر من مركز أو أنّ التّقابل بين مركز/وهامش فيها غير ذي موضوع. ويبدو هذا التقابل جليّا بشكل خاصّ في كلّ من فرنسا وأنجلترا حيث نواجه أنساقا مغلقة ثابتة نسبيّا. ويبدو أنّ الأوصاف الأدبيّة العصيّة على التّحديد (كأدب الآفاق على سبيل المثال) تعمل على أن تتّخذ لها مركزا. والتّقابل مركز/هامش مهمّ خاصّة لأنّه، بدمجه مع أعلى/أسفل وابتدائي/ثانوي، يساعدنا على إحاطة أجود بالتّغيّرات ونزعات التّطوّر الأدبي.

الخارجي/الداخلي :

إنّ التّقابل خارجي/داخلي شبيه بسالفه. فبإمكان توجّه معيّن للأدب (لمؤلّف أو لتيّار) أن يكون أدبيّا محضا أو إن شئنا في علاقة بكمّ من الرّواسم لا بعبارات جوهريّة خارجة عن الأدب. ويمثّل تعايش النّزعة المركزيّة مع النّزعة الطبيعيّة، على سبيل المثال، تفرّعا في تطوّر الأدب في فرنسا إذا أخذنا الأمر باصطلاحات النّزعات الخارجيّة/الدّاخليّة: فالسّرياليّة، باعتبارها تشكيكا في التّقاليد الأدبيّة والتقاليد الاجتماعيّة الثقافيّة، هي نقض داخليّ وخارجيّ للأدب في آن معا. ومن اليسير أن نتصوّر معايير تحليليّة أخرى مثل كهولة/شباب، ورجل/امرأة ومن شأن هذه المعايير أن تكون تفريعات تثبّت التّوجّه الأدبيّ الخارجيّ للنّسق (مفردة/جمع) أو للشّكل/الوظيفة. وهو ما يبرز الالتباس في ثنائيّة داخلي/خارجي.

إنّ المبادئ المتّبعة بسيطة في مصدرها معقّدة عند التّطبيق. ويقتضي الأمر سعيا إلى تحديد أدقّ لأدب ما (لأثر ما أو لمؤلّف ما) عن طريق استمارة مفتوحة ووظيفيّة. ولنعلن بسرعة عن المزايا النّظريّة والمنهجيّة لهذه المقاربة، فللوهلة الأولى، يبدو ممكنا أن نحيط بشكل جيّد بمجموعة كبيرة من الظّواهر "الأدبيّة" التي تحاشينا دوما، وحتى يومنا هذا، أخذها بعين الاعتبار (شأن الأصناف المختلفة لشبه الأدب على سبيل المثال، وحتّى مختلف أشكال النّقد). وفي مستوى ثان، ليس للنّظريّات المختلفة (المتّصلة بالرواية والمسرح وغيرهما). ولا للمناهج المختلفة السارية المفعول هذه السنوات الأخيرة، أن تتعارض البتّة مع تمشّينا، اللهمّ إلاّ إذا كانت مفرطة التفاؤل (كأن تصادر مثلا بصفة قبليّة على أنّ للحدود إفادة، في حين أنّ هذه الحدود لا تعدو أن تكون في الواقع سوى فرضيّات). أمّا في المستوى الأخير، فإنّ فكرة الأدب باعتباره تعدّد أنساق أو التفسير الوظيفي للظاهرة الأدبيّة يسمح لمختصّي الأدب بأن يتكلّموا لغة تتماشى تماما مع ما يستعمله علماء الاجتماع ومؤرّخو الفنّ من لغة، بله علماء الأحياء أو رجال الاقتصاد ؛ وذلك في حالة تصوّر هؤلاء موضوعهم ظاهرة تنتمي إلى مجال التواصل. ولم تقع البتّة، التّضحية بخصوصية المواضعات الأدبيّة، على خلاف ما كان عليه الأمر لدى كثير من مؤرّخي

الأدب أو لدى كثير من الموضوعاتيين، وذلك أملا في اكتساب ملامح الثّقافة "من فوق" أي انطلاقا من وحدات ثقافيّة ولسانيّة أوسع مدى من الأدب.

من النّظريّة إلى البحث :

سيقرّ معظم المنظّرين بأن لا سبيل إلى مناقشة صلاحيّة نظريّاتهم بعبارات نظريّة بحت. والأعمال الوصفيّة المتناولة لظواهر تاريخية استدراك ضروريّ على المناقشات النّظريّة الصرف. وستمكّن الأعمال الوصفيّة من فحص المواقف النّظريّة، وربّما من تركيزها. وكلّ فصل جذري بين هذين التوجيهين إنّما هو ضار بالدّراسات الأدبيّة عموما. وقد اتّضح أنّ عددا عديدا من "التّطبيقات" على هذه النّظريّات كان نظريّا أساسا، ما دام قد وقعت بلورته وصياغته بطريقة انتقائية (فالمنظّر يختار من الأمثلة ما يناسبه أكثر) ولذلك لا يدلّ اللّجوء إلى الأمثلة على شيء البتّة. فللبحوث الطويلة النّفس، المتسلسلة القابلة دوما أن يتثبّت منها (بالرّوائز) وحدها وظيفة نظريّة حقاّ. وما تمّ القيام به، في الواقع، من أعمال تبنّت بوضوح نظريّة تعدّد الأنساق مازال محدودا عددا غير أن تنوّع بعض هذه الأعمال وتوسّعها وما استهدفته تستحقّ منّا كلّ عناية (وايفان زوهار 1978). ويحسن التّنبيه إلى أنّ كثيرا من هذه الأعمال صيغت، من وجهة نظر توليديّة، انطلاقا من وجهات نظر تاريخيّة. وما ألجأ الباحثين (والمؤرّخين بالمعنى الواسع للفظ) إلى اللّجوء إلى نظريّة مُرضية إنّما هو غالبا وجوب الفرضيّات النّظريّة. وقد يكون من الخطير تخيّل نظريّات أو تطبيقات تسبق فيها النّظريّة البحوث الوصفيّة. كما قد يكون المزج مبدئيا، بين ضروب من التّمشّي والأولويات ضمانا نظريّا رفيع القيمة. ومن رغب من الباحثين في فحص فعالية النّظريّات والتّرسيمات المعروضة آنفا لا يمكنه، من هنا فصاعدا الاكتفاء بالمطارحات النّظريّة الصرفة، بل عليه أن يبادر بنفسه بالتّطبيق، أو على الأقلّ بدراسة الأعمال الوصفيّة القائمة على المقاربة المتعدّدة الأنساق. ولهذا السّبب، نحيل القارئ على دراساتنا الوصفيّة الخاصّة وإلى تلك التي ذكرها ايفان زوهار 1978 وهرمانس 1984.

قائمة المصادر والمراجع

من المفروغ منه أننا ظلمنا كثيرا من المنظّرين الذين وجهوا نظريّة تعدّد الأنساق أو ساعدوا على توجيهها، والذين طبعوا هذه السنوات الأخيرة كلّ العلم الأدبي بطابعهم (أمثال هانس روبرت ياوس وأساطين "مدرسة التّلقّي"). ويكفينا، فعلا، أن نعرض المؤلفات التي تنضوي، بوضوح كامل، في منظور "تعدّدي". وسيكتشف، من جهة أخرى، التّوازي المهمّ القائم بين مقاربتنا والبحوث التي اكتشفناها وما بالعهد من قدم (من مثل منشورات عالم الاجتماع الفرنسي بورديو، وكتاب كلود لافارغ عن "القيمة الأدبيّة : التصوير الأدبي والاستخدام الاجتماعي للتّخييل"، باريس 1983؛ تصوّرات باربارا شتاين سميث من جامعة بانسيلفانيا عن مسألة التقويم في الدراسات الأدبيّة. وآخر ضبط نظري بخصوص موضوع تعدّد الأنساق وأفضله نجده لدى ايفان زوهار، 1979، إذ يحيل هو نفسه على كمّ غزير من البحوث الجارية. وايفان زوهار 1978 يحتوي ويبلورها نقاطا في النّظريّة خاصّة ويقترح نماذج دراسيّة وصفيّة أمّا توري 1980، فيقدّم، من جهة أخرى، مراجعة عميقة لا باصطلاحات تعدّد الأنساق، للمسائل الأساسيّة المتّصلة بالتّرجمة.

BIBLIOGRAPHIE :

Il va de soi que nous sommes injustes vis-à-vis de plusieurs théoriciens qui ont orienté ou aidé à orienter la théorie du polysystème, et qui ont marqué toute la science littéraire des dernières années (tels Hans Robert Jauss et les maîtres de la "Rezeptionsforschung"). Nous nous contentons en effet de citer les ouvrages qui se rangent le plus nettement dans une perspective "polysystémique". On trouvera d'autre part des parallélismes très intéressants entre notre approche et des recherches que nous venons de découvrir (les publications du sociologue français Bourdieu, le livre de Claude Lafargue sur La Valeur littéraire. Figuration littéraire et usages sociaux des fictions, Paris, 1983; les conceptions de Barbara nstein-Smith de Pennsylvania University sur la question de l'évaluation dans les études littéraires). On trouve la dernière et la meilleure mise au point théorique au sujet du polysystème dans Even-Zohar 1979, qui renvoie & bon nombre de recherches en cours. Even-Zohar 1978 contient et élabore des points particuliers de la théorie et propose des modèles d'études descriptives. Toury 1980 représente d'autre part une révision fondamentale en termes de polysystème des principales questions relatives à la traduction.

- Even-Zohar, Itamar, 1970. "The Function of the Literary Polysystem in the History of Literature". Communication faite lors du Tel Aviv Symposium on thé Theory of Literary History. Repris dans Even-Zohar 1978.

--- 1978. Papers in Kistorical Poetics. The Porter Instituce for Poetics and Semiotics. Tel Aviv University, Tel Aviv (Papers on Poetics A Semiotics 8) .

--- 1979. "Polysystem Theory". Poetics To-day, I, 1-2, 287-510.

- Toury, Gideon, 1981, éd.Translation Theory and Inter-cultural Relations. Numéro spécial Poetics today, II, 4.

- Toury, Gideon, 1974. "Literature as a Polysystem". Ha-Slfrut 18-19 (December), 1-9 (en hébreu, avec résumé en anglais).

---1978. "The Nature and Rôle of Norms in Literary Translation", dans : James S.Holmes, José Lambert & Raymond Vanden Broeck, éd. Literature and Translation. Leuv-en , ' Acco .

--- 1980. In Search of A Theory of Translation. The Porter Instituts for Poetics Semiotics, Tel Aviv University.

On lira d'excellents commentaires sur la théorie du polysystème dans :

- Segal, Dimitri, 1982. « Israeli Contributions to Literary Theory », dans IBSCH, Elrud, 1982, éd. Schwerpunkte der_literaturwissenschaft ausserhalb des deutschen Sprachraums (Amsterdam: Rodopi), 261-292.

Outre les travaux mentionnés dans Even-Zohar 1979, on pourra consulter les publications suivantes:

- Broeck, R.van den «Lefevere, A., 1979, Uitnodiging tot de vertaalwetenschap, Muidenberg : Coutinho.

- D'hulst, Lieven, 1980. La Ballade en France (1810-1830). Formation et évolution d'un genre instable. Preprint Literatuurwetenschap N°2 KU Leuven.

--- 1982. L'Evolution de la poésie en France (1780-1830). Introduction à une analyse des interférences systémiques. Thèse inédite Literatuurwetenschap KU Leuven.

- D'hulst, Lieven, Lambert José Van. Bragt Katrin, 1979. Littérature et traduction en France (1800-1850). Etat des travaux. Leuven, Département Literatuurwetenschap Ku Leuven, preprint n°1.

- Durisin, Dionyz, 1974. Sources and Systematics of Comparative Literature (Bratislava: Universita Komenakeho).

- Fokkeir.a. Douwe W., 1974. "Method and Programme of Comparative Literature"'Syntheses {Bulletin du comité national de littérature comparée de la république socialiste de Roumanie), I: 51-62.

- Guilién, Claudio, 1970. Literature as System : Essay Towards the Theory of Literary History (Princeton UP).

- Hermans, Théo, à paraître, éd.The Manipulation of Literature. Essayron Translated Texts. London : Croom Helm.

- Holmes, J.S., Lambert J. A Vanden Broeck, R., éd., 1978, Literature and Translation. New Perspectives in Literary Studies, Lauven: Acco.

- Lambert , J., 1978 a. "Echanges littéraires et traduction : discussion d'un projet", Holmes et al., éd., 1978: 142-160

--- 1978 b. "Echanges littéraires et traduction. Etudes descriptives vs. études théoriques", In Lillebill Gr&hs e.a., ed. Theory and Practiee of Translation, Bern, Lang: 237-250 (Nobel Symposium 39. Stockholm, September 6-10. 1976)

--- 1980 a. Plaidoyer pour un programme des études comparatistes. Littérature comparée et théorie du poly système. Société Française de Littérature Générale et Comparée. Congrès 1980. Montpellier, 18)21 septembre 1980. (A paraître)

--- 1980 b. "Production, tradition et importation : une clef pour la description de la littérature et de littérature en traduction". Revue canadienne de littérature comparée, VII, 2, 246-252.

--- 1981. "Théorie de la littérature et théorie de la traduction en France (1800-1850) interprétées à partir de la théorie du polysystème", dans Even-Zohar t Toury, 1981.

--- 1982. "La Traduction, les genres et l'évolution de la littérature. Propositions méthodologiques". Association Internationale de Littérature Comparée. Dixième Congrès. New York, 22-29 août 1982. (à paraître)

--- 1983 a. L'éternelle question des frontières: littératures nationales et systèmes littéraires" dans: C.Angelet, L.Melis, F.J.Mertens et F.Musarra, éd: Langue, Dialecte, Littérature. Etudes romanes à la mémoire de Hugo Plomteux (Leuven, Leuven University Press) .

--- 1983b. How Emile Deschamps translated Shakespeare ' s Macbeth, or Theatre System and Translational System in French Literature (1800-1850), Dispositio (à paraître: numéro spécial sur traduction).

- Lefevere André, 1977. "Traduction, traduction littéraire

et littérature comparée, in: Paul A.Horguelin, éd;La Traduction, une profession. Actes du XVIIe Congrès de la Fédération Internationale des Traducteurs (FIT). Montréal 1977 (Montréal, Conseil des traducteurs et interprètes du Canada).

- Van Bragt, Katrin, 1980. "The Vicar of Wakefield" en langue française. Traditions et ruptures dans la littérature traduite. Leuven, Département Literatuurwetenschap KU Leuven, preprint n°3.

- Van Gorp, Hendrik, 1981-1982. Geschiedenis, théorie en system : valse dilemma's in de Literatuurwetenschap Spektator, 514-519.

- Lotman, louri, 1976. "The Content and Structure of thé Concept of 'Literarure' ", PTL - A Journal for Descriptive Poetics and Theory of Literature I, 2 (April 1976).

- Popovic, Anton, s.d. Dictionary for the Analysis of Literary Translation. Edmonton: The University of Alberta, Dept. Of Comparative Literature.

- Vodicka , Félix, 1976. Die struktur der literarischen Entwicklung, Munchen, Fink Verlag.

- Yahalom, Shelly, 1978. "Le Comportement d'un polysystème littéraire en cas de crise. Contacts intersystémiques et comportement traductionnel", dans Even-Zohar & Toury, 1981.

--- I979a. Le Rôle des textes non littéraires dans l'élaboration de modèles narratifs : interférences entre le système de textes –verbaux-non-littéraires et le genre romanesque français au XVIII^{e} siècle, communication présentée au synopsis symposium : Narrative theory and the Poetics of fiction. Tel-Aviv and Jerusalem, June 1973 (à paraître)

---1979. Problèmes d'interférences de systèmes sémiotiques", communication présentée au 2e congrès de l'AIS, Vienne, juillet 1979.